أحاديث إصلاح القلوب

(١٥)

أصول الإيمان

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: **فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ**. قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**». قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ؛ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ**

دِينَكُمْ». رواه مسلم[(١)].

هذا حديث عظيم؛ اشتمل على أصول الدِّين ومُهِمَّاته وقواعده، ويدخل فيه الاعتقادات والأعمال الظَّاهرة والباطنة، فجميع علوم الشَّريعة ترجع إليه من أصول الإيمان والاعتقادات، ومن شرائع الإسلام العمليَّة بالقلوب والجوارح، وقد قيل: إنَّه يصلح أن يُسَمَّى: «أُمَّ السُّنَّة» لرجوعها كلِّها إليه، كما تُسَمَّى الفاتحة: «أُمَّ الكتاب»، و«أُمَّ القرآن» لمرجعه إليها.

ومن أعظم ما اشتمل عليه هذا الحديث: إصلاحُ القلوب، بذكر أعظم ما تستصلح به القلوب، وهو الإيمان بأصول الإيمان السِّتَّة، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». وهي أصول عظيمة الشَّأن، واجب على كُلِّ مسلم أن يؤمن بها بقلبه، إيمانًا جازمًا لا يخالطه أدنى شَكٍّ ولا ريب.

وقد جاء ذكر هذه الأصول السِّتَّة، في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه، تأكيدًا على أهمِّيَّتها وعظيم مكانتها؛ وسورة البقرة قد اشتملت على هذه الأركان: في أوَّلها، وفي وسطها، وفي خاتمتها.

ففي أوَّلها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أوصاف المُتَّقين: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ

(١) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨).

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٢-٥].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ جاء عن أبي العالية، أنَّه قال: «أي: يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنَّته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث. فهذا غيب كلُّه»(١)، والإيمان بالغيب صفة امتاز بها المؤمنون، الَّذِين امتنَّ الله عليهم بالإيمان وهداهم له؛ فإنَّهم يؤمنون بكُلِّ ما غاب عنهم ممَّا أخبرتهم به رسل الله، فشأن الإيمان بالغيب عظيم، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَا آمَنَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ إِيمَانٍ بِغَيْبٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥]»(٢).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ متضمِّن الإيمان بالكتب المُنَزَّلة، ومتضمِّن الإيمان بالرُّسُل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، فيه الإيمان باليوم الآخر.

وفي وسط سورة البقرة، قال الله سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]. فقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فيه الإيمان بالله، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٦٧).

(٢) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٧٤).

إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ إلى آخر الآية؛ متضمِّن الإيمان ببقيَّة أركان الإيمان السِّتَّة.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧]. وتُسَمَّى هذه الآية آية البِرِّ، وقد تضمَّنت أصول الإيمان وأركانه، وبُدأ بها في الآية؛ لأنَّها أعلى أوصاف أهل البِرِّ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة»(١)، ثمَّ نقل عن سفيان الثَّوريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: هذه أنواع البِرِّ كلِّها. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّ مَنِ اتَّصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كلِّه، وهو الإيمان بالله، وهو أنَّه لا إله إلَّا هو، وصدَّق بوجود الملائكة الَّذين هم سفرة بين الله ورسله، ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المُنَزَّلة مِنَ السَّماء على الأنبياء، حتَّى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المُهَيْمن على ما قبله مِنَ الكتب، الَّذي انتهى إليه كلُّ خير، واشتمل على كلِّ سعادة في الدُّنيا والآخرة، ونسخ الله به كُلَّ ما سواه مِنَ الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كُلِّهم من أوَّلهم إلى خاتمهم محمَّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ [البقرة:١٧٧]، أي: هؤلاء

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥).

الَّذِين اتَّصفوا بهذه الصِّفات هم الَّذِين صَدَقوا في إيمانهم؛ لأنَّهم حقَّقوا الإيمان القلبيَّ بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الَّذِين صدقوا، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُنَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]»[(١)].

وفي خاتمة هذه السُّورة قال الله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وهي مشتملة على أركان الإيمان السِّتَّة المأمور بالإيمان بها، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[(٢)]. أي: كفتاه من كُلِّ شرٍّ وسوء، وفي تلاوتها كُلَّ ليلة تجديد للإيمان بهذه الأصول العظيمة.

وقال الله سبحانه في سورة النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء:١٣٦].

وهذه الآية فيها: التَّنصيص على كفر مَن لم يؤمن بهذه الأركان، أو لم يؤمن بشيء منها، وأنَّه في غاية الضَّلال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ فمَن أخلَّ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧).

بها أو بشيء منها؛ فلا قَبول لطاعته، ولا انتفاع له بشيء من عبادته، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥].

وممَّا يُبَيِّن أهمِّيَّة هذه الأصول، وعظم شأنها، ورفعة مكانتها: أنَّ الشَّرائع السَّماويَّة كلَّها ونبوات الأنبياء جميعهم مُتَّفقة على هذه الأصول، وإن اختلفت شرائعهم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، أمَّا الأصول فواحدة لدى جميع المرسلين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ.

وممَّا يُبَيِّن أهمِّيَّتها: أنَّها تُسَمَّى أصول الإيمان وأركانه؛ لأنَّها أعمدته الَّتِي عليها قيامه، وهذا يعني: أنَّه بزوالها أو بزوال شيء منها ينهدم الدِّين.

وممَّا يُبَيِّن أهمِّيَّتها: أنَّها للإيمان كالأصول للأشجار، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]. والمراد بالشَّجرة الطَّيِّبة النَّخلة، وهذا مَثَلٌ بديع ضربه الله تَبَارَكَوَتَعَالَى للإيمان، يفيد المؤمن معرفةً للإيمان؛ لأصوله الرَّاسخة، وفروعه الباسقة، وثماره اليانعة، وفوائده العميمة في الدُّنيا والآخرة. وتأمَّل هذا التَّشبيه للإيمان بالنَّخلة، فإنَّ الشَّبه في ذلك ظاهر؛ إذ النَّخلة لا بُدَّ فيها من ثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع مثمر.

وهكذا الشَّأن في الإيمان، لا بُدَّ فيه من ثلاثة أشياء: اعتقاد القلب، وقول اللِّسان، وعمل الجوارح بطاعة الله جَلَّوَعَلَا.

وبهذا يعلم أنَّ الإيمان شجرةٌ مباركة عظيمة النَّفع، كبيرة الفائدة، عظيمة الأثر، لها مكان تُغرس فيه، ولها سَقْي خاصٌّ بها، ولها: أصل، وفرع، وثَمَر.

أمَّا مكانها الَّذِي توضع فيه فَسَائِلُهَا، ومنه تنشأ فروعها؛ فهو قلب المؤمن. قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمر:٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وأمَّا سقيها؛ فهو وحي الله جَلَّوَعَلَا؛ كلامه سبحانه، وكلام رسوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ. فبهما تحيا هذه الشَّجرة وتنمو نموًا مطَّردًا، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، والنُّور هنا هو وحي الله تَبَارَكَوَتَعَالَى الَّذِي به تحيا هذه الشَّجرة، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٢٤].

وأمَّا أصولها؛ فهي أصول الإيمان السِّتَّة، الَّتِي لا قيام للإيمان، ولا صلاح للدِّين، ولا استقامة للإسلام إلَّا بها؛ وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

وأمَّا فروعها: فإنَّها الطَّاعات الزَّاكية، والقربات المُتَنَوِّعة؛ فالصَّلاة مِنَ الإيمان، والزَّكاة مِنَ الإيمان، والحجُّ مِنَ الإيمان، وكُلُّ طاعة يتقَرَّب بها المؤمن إلى الله؛ فهي مِنَ الإيمان، وكذلك بُعد العبد عَنِ الحرام كُلُّ ذلك مِنَ الإيمان.

وأمَّا ثمارها: فهو كُلُّ خير في الدُّنيا والآخرة، وكُلُّ نعمة؛ فإنَّ ذلك كلَّه من ثمار الإيمان، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة:١٧].

فبالإيمان يحيا العبد الحياة الطَّيِّبة في الدَّارين، وينجو مِنَ المكاره والشُّرور والشَّدائد، ويدرك جميل العطايا وواسع المواهب. وبالإيمان ينال ثواب الآخرة؛ فيدخل جنَّةً عرضها كعرض السَّماء والأرض، فيها مِنَ النَّعيم المقيم والفضل العظيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبالإيمان ينجو العبد من نارٍ عذابُها شديد، وقعرها بعيد، وحرُّها أليم.

وبالإيمان يفوز العبد برضا ربِّه سبحانه، فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذَّذ يوم القيامة بالنَّظر إلى وجهه الكريم، في غير ضرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة.

وبالإيمان يطمئنُّ القلب، وتسكن النَّفس، ويُسَرُّ الفؤاد، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨].

وكم للإيمان مِنَ الفوائد العظيمة، والآثار المباركة، والثِّمار اليانعة، والخير المستمرِّ في الدُّنيا والآخرة، ما لا يحصيه ولا يحيط به إلَّا الله،؛ فهو أعظم المطالب، وأجلُّ المقاصد، وأنبل الأهداف، وهو أفضل ما اكتسبته النُّفوس وحصَّلته القلوب، ونال به العبد الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة، بل إنَّ كُلَّ خير في الدُّنيا والآخرة مُتَوَقِّف على الإيمان الصَّحيح.

أسأل الله جَلَّوَعَلَا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ أن يزيِّننا أجمعين بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.